الأسلوبية والبلاغة مثاقفة واختلاف

إعداد

د/ محمود محمد نبيل عبد المحسن علي.

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالقاهرة

الأسلوبية والبلاغة مثاقفة واختلاف.

محمود محمد نبيل عبد المحسن علي

البريد الإلكتروني: Mahmoud Nabil_٩٩@azhar.edu.eg

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

الملخص:

قام البحث بدراسة جذور الأسلوبية عند العرب والغربيين، وطريقة تناولها للنصوص، كما أبان عن نشأتها.

كما أبان البحث عن نشأة البلاغة وتعريفها، والعلاقة بين البلاغة والأسلوبية، وهل الأسلوبية امتداد للبلاغة أو كل منهما مكمل للآخر.

جاء البحث في ثلاثة مطالب: الأسلوبية نشأتها وماهيتها، البلاغة نشأة وتطورا، بين الأسلوبية والبلاغة.

ومن نتائج البحث: الأسلوبية ليست مقابلة للبلاغة، وإنما تقابل النقد ، وهي أقرب إلى كونها منهجا.

منهج البحث: التحليلي.

الكلمات المفتاحية: [الأسلوبية– البلاغة– المنهج– النقد – الجمود– العلم]

Stylistics and rhetoric are intercultural and diverse.

Mahmoud Mohamed Nabil Abdel Mohsen Ali Email: Mahmoud Nabil_٩٩@azhar.edu.eg
Lecturer of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Arabic Language in Cairo.

Abstract:

The research examined the roots of stylistics among Arabs and Westerners, and the way it approaches texts. It also revealed its origins.

The research also revealed the origins and definition of rhetoric, the relationship between rhetoric and stylistics, and whether stylistics is an extension of rhetoric or whether each complements the other.

The research comprises three sections: stylistics, its origins and nature, rhetoric, its origins and development, and the relationship between stylistics and rhetoric.

Among the research findings: Stylistics is not the opposite of rhetoric, but rather the opposite of criticism, and is closer to being a methodology.

Research Methodology: Analytical.

Keywords: [Stylistics - Rhetoric - Method - Criticism - Stagnation - Science]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، علم الإنسان ما لم يعلم وكان فضل الله عظيما، والصلاة والسلام على خير مَنْ تَعَلَّم وعلَّم وأُوتي جوامع الكلم؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإن سنن الكون التغيير والتطور ، ومسائل العلم في مقدمة ما يناله التطور والتغيير، ولكن هل كل تغيير يقوم على أسس وقواعد تنقل المغيَّر والمطوَّر إلى الأفضل؟ أو التغيير للمخالفة والتَّحَرُّر فقط. فإن كانت الأولى فنعم الأمر هِي، وإن كانت الأخرى فإلى الله المشتكَى.

وقد آلى القدماء على أنفسهم ألا يتركوا اللاحقين يتخبطوا في عشواء الظلام؛ لما أحسوه من ضعف يطرأ على الألسن، فضبطوا العلوم، وحدوا حدودها، ومهدوا السبل ليحفظوا لغة القرآن ، وقد مكنوا لغيرهم ليحافظوا على تراثهم، فمنهم من حافظ، ومنهم من اشتدت عجمته فأخذ ليطوِّر فأعجم، ويصلح فأفسد.

ومع تطور العصر واختلاط العرب الشديد بالعجم، بل وجعلهم المثل المحتذى به- ظهرت النظريات الحديثة في دراسة اللغة، كالتناص والأسلوبية والبنيوية وغيرها من النظريات التي أَحْيَت همم المحافظين ليذبوا عن تراثهم.

وقد أخذ كثير من أهل الحداثة هذه النظريات وتلك المناهج بانبهار ، فأخذ بعضهم إياها أخذ الكفيف الذي لا يرى، وبعضهم أخذ ما حسن ورد ما لا ينتظم مع لغته العربية، وبعضهم رفضها رفض العدو المتترس، وليس الأمر كذلك. بل كل جديد له ماله وعليه ما عليه.

ولذا كان البحث حول إحدى النظريات أو المناهج الجديدة مما تدعوا إليه قريحة دارس البلاغة، فعمد البحث لاختيار البحث في الأسلوبية والبلاغة تحت عنوان «**الأسلوبية والبلاغة ماقفة واختلاف**».

دافع البحث:

حين تراود العقول فكرة بحث ما؛ لا بد أن يكون أول البدء فيها معرفة أصولها، من أين اشتُقت ؟ وفيم استعملت؟ وهكذا دواليك، وحين كثرت مؤلفات أهل العصر بعنوان الأسلوبية، أو الأساليب أو ما دار حولهما، وكان الناظر في تلك الدراسات لا يَعْدم قيامها على أصول البلاغة والنحو (علوم الآلة) –كان ذلك دافعا للبحث حول هذا المصطلح وعلاقته بالبلاغة العربية . ولا سيما أن كثيرا من المبرَّزين من أهل العلم في العصر الحديث صار تقدمهم بتناول مثل هذه القضايا والطعن في غيرها، بل إن هناك من لا يعترف بدارس العربية إذا لم يتقن هذه القضايا.

منهج البحث: وقد قام البحث على المنهج التحليلي المقارن، فأظهر ماهية الأسلوبية ونشأتها وكذلك البلاغة وتطورها، وما التقى فيه الاثنان معا وما اختلفا فيه.

الدراسات السابقة:

الأسلوبية من المناهج التى كثرت الكتب والأبحاث فيها، وخاصة من تأثر بها وكتب عنها، ثم أخذا المناهضون له في الرد عليه، وأخذ المؤلفون في الكتابة عن التأليف بينها وبين علوم العربية، فكثرت الدراسات في مصر وخارجها، وهي أكثر من أن تعد؛ لأنها –الأسلوبية– منهج جديد في مرحلة تطوره، وكلٌّ يُدلِي بدلوه، وأكثر مراجع البحث من الكتابات حول الأسلوبية، و منها: «علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية»، للدكتور عبد العظيم

المطعني، وفيه تحدث عن الأسلوب باعتبارات متعددة، وكذلك التأثر به ونماذج تطبيقة.

وكذلك بحث «موروثنا البلاغي والأسلوبية الحديثة، دراسة ومةوازنة» د/ محمد بن عبد العليم الدسوقي، وتحدث فيه عن التجديد، وعن الأسلوبية، ودعوي نقض الأسلوبية لعلوم البلاغة، وكلٌّ يلتقي في هدف التأصيل للعلوم؛ لذا كانت هذه الأطروحة مختصرة لبيان أصول العلمين العلاقة بينهما والرد على بعض الشبهات.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة وثبت للمراجع.

أما **المطلب الأول** : الأسلوبية نشأتها وماهيتها.

المطلب الثاني: البلاغة نشأة وتطورا.

المطلب الثالث: بين الأسلوبية والبلاغة.

خاتمة: وفيها أهم نتائج البحث التى توصل إليها من التحليل، وبعض التوصيات.

وختاما: أسأل الله العفو عن الزلل، وقبول هذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه، وأن يفتح لي في كتابه فتوح العارفين العاملين، وأن ينير لي الدرب، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن ينفعني بما علمني، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المطلب الأول: الأسلوبية نشأتها وماهيتها

الأسلوبية:

الأسلوبية مصدر صناعي من الأسلوب ، ومعنى كونها مصدرا صناعيا أنها صفة منسوبة إلى الاسم (الأسلوب)، فهي ترجع إلى الأسلوب؛ ولذا يبدأ الحديث بتعريف الأسلوب.

جذور لمصطلح الأسلوب عند القدماء:

أما عن الجذور العربية في نشأة هذا المصطلح عند القدماء، فقد وردت في الكتب متناثرة مذ عرفت مؤلفات العربية، بدءا من معاجمها.

قال ابن منظور: «يُقَالُ للسَّطْر مِنَ النَّخِيلِ: أُسْلوبٌ. وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فَهُوَ أُسلوبٌ. قَالَ: والأُسْلوبُ الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمَذْهَبُ؛ يُقَالُ: أَنتم فِي أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ أَساليبَ. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأْخذ فِيهِ. والأُسْلوبُ، بِالضَّمّ: الفَنُّ؛ يُقَالُ: أَخَذ فلانٌ فِي أَساليبَ مِنَ الْقَوْلِ أَي أَفانِينَ مِنْهُ؛ وإِنَّ أَنْفَه لَفِي أُسْلُوبٍ إِذا كَانَ مُتكبِّراً »(١)

«الْأُسْلُوبُ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ الطَّرِيقُ وَالْفَنُّ، وَهُوَ عَلَى أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْقَوْمِ أَيْ عَلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِهِمْ»(٢).

وقد بدا أصل المصطلح لدى العرب وهو اتباع طريقة من الطرق في القول، وهذا يشمل النطق كأصل للتعبير، والكتابة كصورة للمنطوق وخبايا النفس، والسير على نمط معين وطريقة منتظمة في هذا الكلم هو الأسلوب.

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ) ، مادة (سلب)، ٤٧٣/١ دار صادر – بيروت، الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٢) المصباح المنير،أحمد بن على الفيومي الحموي (ت ٧٧٠هـ)،تحقيق: د/ عبد العظيم الشناوي، مادة (س ل ب)، ٢٨٤/١، دار المعارف، الطبعة الثانية،١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

وقال بييروجيرو: « بدأ مفهوم الأسلوب يتحدد ويتسع في الوقت الذي بدأت فيه الدراسة تأخذ شكلا منظما، مما جعل بعضهم يعطيها اسم الأسلوبية، ولكن مضمون كلمة أسلوب واسع جدا، وهو عندما يخضع للتحليل يتناثر غبارا من المفاهيم المستقلة، هذه الدراسة التي تقوم على قواعد مشتركة باسم الأسلوبية، يجمع بينها أنها تعمل في ميادين مختلفة ووفق مناهج واضحة.

النتيجة: إن هذه الكلمة تغطي اليوم مجموعة من الطرق المتميزة، التي لا ترى الأسلوب إلا من خلال مظاهر خاصة، ولكن بعضها لا يتناول إلا الإطار، على حين بعضها الآخر هجر المصطلح؛ لأنه أخذ يميل إلى الاختلاط أكثر فأكثر، وهذا الأمر مرتبط بمفهوم الأسلوب نفسه وبتطوره التاريخي...تبقى الأسلوبية كما نتصورها، وكما وصفناها في هذا الكتاب: دراسة للتعبير اللساني، أما كلمة أسلوب إذا رُدَّت إلى تعريفها الأصلي فهي تعني طريقة للتعبير عن الفكر بواسطة اللغة» [1]، وهذا التعريف لم يخرج عن العرب، حين وُصِف بالشكل المنظم، وإن كان قائله اعترض بمحترزات عليه، وقد أظهر ما وقع فيه الخلط في تطور المصطلح نتيجة تناوُلِ الدارسين له : ظاهريا –بلا تعمق ومثابرة– أو مختلَطا بغيره، ولعل هذا من أسباب الطعن بعد ذلك في علوم العربية التي جُعِلت نِدًّا لمسمى الأسلوبية.

ولكن هل الأسلوبية حين أصبحت مأخوذة من الاسم (أسلوب) صارت تحمل معناه، أم حملها مُردَدِّوها على عاتقهم ليخرجوا بها من عباءة العرب كعلم غربي جديد؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد من

([1]) ينظر: الأسلوبية، بييرجيرو، ترجمة منذر عياش، صـ١٠، مركز نماء الحضاري للدراسات والترجمة والنش، حلب..

معرفة حدود هذا المصطلح (الأسلوبية) من نشأته، وكيف تناوله أصحابه -كما زُعم-

نشأة الأسلوبية عند الغربيِّين:

نشأت الأسلوبية كعلم مستوحاة من رأي دي سوسور[1] (١٨٥٧-١٩١٣م) حين فرق بين اللغة والكتابة؛ إذ جعل اللغة نتاجا اجتماعيا مخزونا في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع ما. في حين جعل الكتابة وسيلة أوأداة نتعرف بها على اللغة وخاصة البعيدة عنا، فقد جعلها تستخدم لتمثيل اللغة أوالتعبير عنها؛ فلايمكن إهمالها، ويجب الإلمام بفوائدها[2].

"وقد جعل الهدف من اللغة مقيدا بالأشكال المنطوقة (الأسلوب)، ولكن لارتباط المنطوق بالمكتوب ارتباطا وثيقا أخطأ الناس واهتموا بالمكتوب. وما الأسلوبية في أساسها إلا المنطوق من كلام الناس.

أخذت الفكرة كمصطلح وبدأت نموها على يد تلامذته كـ(شارل بالي)، إلا أن طبيعة الأشياء تبدأ غير مكتملة، فلم يقنع كثير من الدرارسين بما قاله بالي، ولكن كانت دراسته باستعمال المنهج الوصفي في تناول اللغة- شرارة بدء للتعمق في الأسلوبية، ولا سيما عند من أطبقت نفسه على قطعها عن جذورها.

فتناولتها المدرسة الفرنسية وكذلك الأسبانية والألمانية، كلٌّ بمنهج يطور سابقه، ولم تظهر الأسلوبيّة إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لوصف الأسلوب في مختلف تجلّياته الصوتيّة، والإيقاعيّة، والصرفيّة، والتركيبيّة، والدلاليّة، والبلاغيّة، والتداوليّة؛ مع تبيان مكوّناته

---

(١) هكذا ورد الاسم في كتابة علم اللغة العام، لفردينان دي سوسور. وهي تختلف باختلاف البلد، فرنسا أو إنجلترا، ولكل منهما تناوله في النطق.

(٢) ينظر: علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة د/ يوئيل يوسف عزيز، صـ٤٢، دار أفاق عربية ، ١٩٨٥م.

الثابتـة، واستكشـاف سـماته النوعيّـة، واسـتجلاء فنّيّاتـه وجماليّاتـه المتعـدّدة والمتنوعة. وذلك كلّه في علاقة بالمتلقّي، أو المستقبِل من جهة، ومراعاة المقصديّة من جهة أخرى.

ومن هنا، فإنّ الأسلوبيّة تصوّر نقديّ، وأدبيّ جديد، استفادت كثيرًا من اللسانيّات، والشكلانيّة الروسيّة، والشعريّة، والبلاغة الجديدة، ونظريّات الحجاج المعاصرة، والنقد الجديد، والتداوليّات، والسيميائيّات"(١)

وبعد هذه اللمحة عن نشأة الأسلوبية كما أشارت الباحثة يتبين أن هذه النظرية نشأت في بدايات القرن العشرين، ووقد عُدت والبلاغة واحدا، ولكن سنة التطور في العلوم –نظرية كانت أو عملية– أن تبدو فكرة فتنمو، ويكون نماؤها متوقفا على اعتدال أصحابها.

تعقيب ونقاش:

ختمت الباحثة قولها بأن الأسلوبية تصف الأسلوب في جميع تجلياته، وقد ظهرت–كمصطلح– في بداية القرن التاسع عشر، وهنا سؤال يسير : ما قولكِ في النقد الموجه لحسان بن ثابت رضي الله عنه حين قال:

«لنا الجفنات الغر يلمعن فِي الضُّحَى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دَمًا

ولدنَا بني العنقاء وَابْن محرقٍ فَأكْرم بِنَا خالاً وَأكْرم بِنَا ابنما

فَقَالَ لَهُ النَّابِغَة: أَنْت شَاعِر وَلَكِنَّك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بِمن ولدت وَلم تَفْخَر بِمن ولدك.»(٢)

---

(١) ينظر:مجلة أوراق ثقافية، بحث: الأسلوبيّة مبادئ واتّجاهات، د. سهام عليّ طالب أستاذ مساعد، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

(٢)خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)،عبد السلام محمد هارون، ١١١/٨، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

فهذا نقد النابغة لقول حسان رضي الله عنه، وحين نحلل هذا النقد فلن يخرج عنه ما اكتُشِف في بداية القرن الماضي من الأسلوبية–كما أشارت الباحثة.

فهذا نقد النابغة لحسان رضي الله عنه، وإن رآه كثير من النقاد نقدا لم يكتمل فهو نقد شامل خَاطَب به أهل زمانه الفصحاء، وهو عين البلاغة والأسلوبية التي تهتم بالمقام والكلام ؛ وهو نقد أخذت منه الأسلوبية–وإن لم تطلع عليه– أصولها؛ إذ بدأ النابغة –لمن كان له عقل– بخطاب نفسِيّ حين قال: إنك شاعر، وهذا منهج يعلم به من ينقد : أن يجعل المنقود مقبل بنفس رحبة على الكلام، ثم أخذ الناقد في نقده بالقواعد الصرفية التي لم تُوجد بعد وهي جمع القلة (جفنات وأسياف) ، كما تطرق بعدها لمقتضيات الأغراض وأصولها في كلام الناس حين قال: فخرت بمن ولدت...، ولا ريب في أن هذا النقد فيه أعلى درجات مراعاة حال المتكلم (الفخر) ثم المخَاطب وهم العرب وطبيعة الفخر لديهم ، وغير ذلك مما يكتب في هذه المقولة من أبحاث وقواعد. فهل يمكن بعد هذا كله أن يقال: إن الأسلوبية هي التي تناولت النص من جوانبه كافة؟!

وقد يقال: إن هذا نقد بلا قواعد ، فهو نقد عشوائي.

ويجاب عن هذا بأن هذا النقد وجه لقوم هم أهل اللغة وعنهم أخذت، فلا يحتاج لتفصيل أو تعليل؛ إذ خاطب القوم بحالهم ، فراعى المخاطَب والحال والمخاطِب، وهي أصل البلاغة و حدود الأسلوبية كما قال أهلها.

كما أن الأسلوبية في نشأتها اعتمدت على جميع العلوم لِتُقَوِّم النّص من خلالها، ولم تقف عند تلك القواعد اللغوية والأدبية، بل أخذت أصلا من أصول البلاغة وهو المطابقة ومقتضى الحال؛ مما كان سببا فيما بعد لأن تُقرن بالبلاغة وتكون نِدًّا لها كما زعم بعض روادها. ولذا قبل عرض هذا الرأي لا بد من التطرق لماهية مصطلح الأسلوبية.

ماهية مصطلح الأسلوبية:

حين تحدث بييروجير عن الأسلوب أشار إلى أن القواميس اقترحت له ما لا يقل عن عشرين تعريفا، فطريقة العيش أسلوب، وطريقة الفنان أسلوب وطريقة الكاتب أسلوب وغيرها من الطرق؛ حتى قال: "إننا لا نملك نظرية في الأسلوب تجمع بين كل الفنون تستطيع أن تكون جزءا لا يتجزأ من علم الجمال"(١).

اختلف كثير من دارسي الأسلوبية حول كونها علما أو منهجا، ويمكن من خلال سرد بعض تعريفاتها أن يستبين هذا الأمر؛

فما هي الأسلوبية؟

"أول من ظهر عنده هذا المصطلح كان «نوفاليس» ومن بعده «هيلانغ» (ت١٨٣٧م)، وكلاهما كانت الأسلوبية لديه مختلطة بالبلاغة؛ حتى قال هيلانغ: إنها علم بلاغي"(٢) . ولكن هذا كان قبل دي سوسير، ولذا يبدو أن القائل ببداية الأسلوبية ونشأتها عند دي سوسير –وهو الأقوى– لم يأخذ برأي نوفاليس؛ إذ البلاغة والأسلوب عنده بمعنى واحد.

فالأسلوبية: "علم التعبير ونقد للأساليب الفردية أو باختصار كما قال بييروجير: دراسة للتعبير اللساني" (٣) وقد أشار المسدّي إلى أن الأسلوب مثلث من مخاطِب ومخاطَب وخطاب؛ ولذ اتجه رواد التنظير والتحليل إلى اعتبار الأسلوب تجسيد لعزيمة المتكلم أن يكسو السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها.

و تطور البحث عند رواد الأسلوبية الحديثة حتى قال بعض روادها «قيرو»: "إن الأسلوب مجموعة ألوان يصطبغ بها الخطاب ليصل بفضلها

---

(١) ينظر الأسلوبية، بييرجيرو، ترجمة منذر عياش، صـ١٠.

(٢) ينظر: الأسلوبية، بييرجيرو، ترجمة منذر عياش، صـ٩.

(٣) ينظر: السابق صـ٩، ١٠.

إلى إقناع القارئ وإمتاعه وشد انتباهه وإثارة خياله"[1]، والتعريفان السابقان كانا بالنسبة للمخاطَب.

وحين قال المسدي عن الأسلوب : أن يكسو السامع ...إلخ، فهو لم يخرج عن تعريف القدماء للبلاغة والبليغ؛ إذ يقول الجاحظ: «حدثني صديق لي، قال: قلت للعَتَّابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ»(٢)

وقال الجاحظ –أيض– نقلا عن بعضهم « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه»(٣)

وقال أبو هلال العسكري: « البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتُمَكِّنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»(٤)

فهذه النتفة من قول الأقدمين المؤسسين للعلم، ما خرج عنها قول المحدثين من أهل الأسلوبية والبلاغة، ولم تترك شيئا لم تأت عليه؛ لأن الصورة المقبولة والمعرض الحسن في كلام السكاكي يشمل كل شيء، وإن عجزت العقول عن الوصول لهذه المعاني فلا يعاب على العلم وإنما على نَقَلَتِه.

---

(١) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، د/عبد السلام المسدّي، صـ٨١، ٨٣، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي.

(٢) البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١/١١٣، ، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٣) السابق صـ ١١٥.

(٤) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري، صـ١٠، تحقيق: على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ– ١٩٥٢م.

وتأتي تعريفات أخري باعتبار الخطاب، منها:

عند «بالي»: الاستعمال ذاته، فاللغة شحنات معزولة والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع بعضها الآخر.، ثم تطور على يد دارسي اللسانيات الديسوسيرية إلى العلامة المميزة لنوعية مظهر الكلام داخل حدود الخطاب[١] وفي عام ١٩٧٢ عرف «ستاروبنسكي» الأسلوبية بقوله : إن الأسلوب مسبار القانون المنظم للعالم الداخلي في النص الأدبي[٢].

نظرة الغربيين وموافقيهم للبلاغة والأسلوبية

يقول بيروجيرو: «كان مجموع طرق الأسلوب عند القدماء يشكل موضوع دراسة خاصة: البلاغة. وهي فن لغوي، وتقنية لغوية تعتبر فنا. إنها كانت في الوقت نفسه بمنزلة قواعد التعبير الأدبي وأداة نقدية تستخدم في تقويم المؤلفات.

انتقلت البلاغة من العصور القديمة إلى العصر الوسيط، ثم تجددت في العصر الكلاسيكي وكونت أسلوبية هي في آن واحد علم التعبير وعلم الأدب»[٣]

ففي الجزء الأول من كلام «بيروجيرو» جعل البلاغة مجموع طرق الأسلوب،فصارت فنا، والفن: الضرب من الشيء والرجل يُفَتِّن في الكلام ، أي: يشتق في فن بعد فن.(٤) والأفانين : أجناس الكلام وطرقه(٥).ثم

---

(١) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، د/عبد السلام المسدّي، صـ ٨٩ – ٩٠.

(٢) السابق، ص٩٣.

(٣) الأسلوبية، صـ١٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة (ف ن ن)،٣٤٧٥/٥، تحقيق: عبد الله علي الكبير،محمد أحمد حسب الله،هاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف، د.ت

(٥) مختار الصحاح، الإمام/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مادة (ف ن ن)، صـ ٥١٣، عني بترتيبه: محمود خاطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٦م.

جعلها تقنية ينطبق عليها مسمى الفن، والتقنية: مجموع الأساليب والطرق الخاصة بفن أو مهنة أو صناع، ثم استعملت كأداة نقدية لتقويم المؤلفات

وفي الجزء الآخر جعل البلاغة هي الجذور العربية لمصطلح الأسلوبية –المصدر الصناعي للأسلوب– ومن خلال تحليل النص تبدو العلاقة والنظرة التي حددها الغربيون للبلاغة، فهي فن التعبير في القديم الذي انتقل في الكلاسيكية إلى الأسلوبية، والتي شملت البلاغة والأدب، فهي –أي الأسلوبية– من منظورهم أكثر تطورا من البلاغة؛ إذ هي شاملة البلاغة والأدب، وقد يكون هذا بذرة دعوة الحداثة في الاستغناء عن البلاغة والاتجاه إلى التطور –الأسلوبية– وهذا ما أخذ يردده كثير من الدارسين العرب المولعين بنقل الثقافة الغربية والدفاع عنها. وحتى لا تكون في الكلام فرية على أحد؛ فإن هذا التحليل قائم على ترجمة نَصِّ «بيروجيرو»، والتى نَقَلَتْ لنا أن البلاغة هي الأسلوب أولا، ثم شكلت مع علم الأدب الأسلوبية الحديثة، فهل دعا الغرب لوأد البلاغة أو دعا إليها الناقلون عن الغرب؟

يقول الدكتور طه وادي في التقديم لكتاب الأسلوبية:«وإذا كان علم اللغة الحديث قد انفصل تماما عن علم اللغة القديم، فإن «علم الأسلوب الأدبي» يبدو هو الآخرمنفصلا إلى حد كبير عن العلم القديم، الذي كانت بينهما بعض أوجه التشابه– وهو «علم البلاغة». إن علم الأسلوب وهو علم «وصفي» حديث، يختلف اختلافا كبيرا عن علم البلاغة، وهو علم «معياري»قديم، يعتمد على قوانين منطقية مطلقة ؛ من هنا يحاول أصحاب هذا العلم – علم الأسلوب الأدبي– أن يجعلوه بديلا موضوعيا جديدا لعلم البلاغة الجامد القديم»[1]

(١) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. فتح الله أحمد سليمان، ص٦، مكتبة الأداب، ١٩٩٠م.

وبإنعام النظر في هذا الرأي الذي –من حسناته– يحمل المشتغل بالدرس البلاغي علي مزيد البحث وإظهار مدى الأخذ به –يتجلى وصفه للبلاغة بالجمود، وقصل الحديث عن القديم، وجعل البلاغة علما معياريًّا، أي: يقوم على قواعد تطالب بما ينبغي أن يكون عليه الحال، فيما يجعل الأسلوبية علمًا وصفيًّا : يصف الظاهرة أو الأسلوب على واقعة وتؤكد صحته أو خطأه.

ولكن هذا القول فيه نظر من حيث إن البلاغة حين جعلت لها معايير وضوابط كان ذلك للاستدلال؛ إذ لم تمنع البلاغي أن يفكر ويتدبر ويخرج مكنون النص الذي يطابق المقام، وظهر ذلك جليا حين كان علماء البلاغة يتحدثون عن قاعدة ما ويتكلمون عن أغراضها كالحذف مثلا، فلم يُقْصِر أحدهم أغراض هذه القاعدة على ما ذكر، وإنما يشير أن هذه أبرز أغراضها، ويدع المتعلم والدارس يُعْمِل قريحته لإخراج الجديد من تلك القاعدة وفق مقتضى الحال.

كما جعل الأسلوبية شاملة للبلاغة والأدب وهذا إبطال لمقارنتها بالبلاغة أو الأدب؛ فهي بهذا منهج تحليلي للنص يُظهر تكوينه معتمدا على قواعد البلاغة وأصول الصورة الأدبية، بل في الواقع يخطو خُطاه متكئًا على قواعد النحو. وقد ظهر هذا جليا في التحليل الأسلوبي لشعر البارودي في الكتاب الذي قدم له الدكتور طه وادي[1].

وهذا ما أثاره مؤلف الكتاب في مقدمته حين قال: «والأسلوبية و«علم الأسلوب» مصطلحان مترادفان، وقد آثر البحث أن يستخدم أولهما؛ لأن هناك من يزعم أن الأسلوبية ليست علما»[2]

ومع هذه الإشارة منه عن تسمية المؤلف بالأسلوبية نجده عند حصر نتائجه لفصوله ولاسيما الفصل الثالث، يقرر كثيرا من قواعد البلاغة

---

(١) ينظر السابق، صـ ٩٠ وما بعدها.

(٢)الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله أحمد سليمان، صـ٩.ذ

بأسلوب غير صريح. وهذا يُجيب ما اتهمت به البلاغة في البداية من فصلها عن العلم الحديث لجمودها.

وقد أشار الدكتور فضل عباس إلى هذا الرأي بالغلو والتطرف –في قوله: «يأخذ بعض المحدثين على بلاغتنا–وهو مأخذ فيه غلو وتطرف– أنها وقفت عند الجملة وما يعرض لها من نظم، وهو ما يختص به علم المعاني، وعند الصور المتعددة لهذه الجملة في علم البيان، والأسلوب – بالطبع – لا يقف عند الجملة، وإنما مجاله الموضوع المتكامل؛ قصة كان أم مسرحية أم مثالا أم بحثا.»(١)، هذا القول وحده كفيل بتأييد ما يميل البحث إليه من كونها منهج نقدي، يتناول الموضوع لإبراز خصائصه.

كانت هذه نتفة من آراء المتعصبين للحديث ونبذ القديم؛ مما يعني أن هناك من الدارسين وأهل العلم من أظهر التوالد بين الأسلوبية والبلاغة، ولكنه جعل الأسلوبية وريثة البلاغة، والإرث يقتضي الموت، فلم يكون صريحا(٢)

يقول الدكتور أحمد الشايب في كتابه «الأسلوب» بيَّن متناوَل البلاغة ومتناول الأسلوب، ثم أشار إلى أن البلاغة تتناول المعاني في بحث الجملة، والبيان في بحث الصورة، وبقيت الجوانب الأخرى –الكلمة والفقرة والعبارة والأسلوب– مهملة في كتب الدراسة البلاغية، إلا ما كان من نذر يسير في كتب الأقدمين يتعلق بالعبارة وإن كان غير مستوف(٣). فهذا ظاهره بيان ما لكل ، ولكن فحواه انقضاء البلاغة وعصرها.

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، د/ فضل حسن عباس، صـ٦٦، دار الفرقان للنشر، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، إبراهيم عبد الله أحمد،صـ١١٢، الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، ١٩٩٤م.

(٣)ينظر : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، صـ ٣٧ وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة،١٩٦٦م.

وهناك مَن اقتصد والتزم الحق –وإن بالغ في ميله للأسلوبية– في بيان أصل البلاغة وأنها لم تجمد أو تنتهي، كما ظهر في كلام الدكتور/ فضل عباس، والباحث/ إبراهيم عبد الله أحمد وغيرهما[1].

تعقيب:

الأسلوبية منهج يقوم عل إبراز خصائص الكلام من خلال استعمال قواعد اللغة، وخصائصها، والحكم عليه من خلال المقام. فما زادت عن الجمع بين العلوم العربية من بلاغة وأدب ونحو وصرف وأصوات وجعلتها خليطا لنقد النَّص والحكم عليه.

الأسلوبية نشأت متأثرة بعلم النفس، وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تخرج عن البلاغة، ثم أخذ المشتغلون بها في تحويرها –أغلب قصدهم– الانسلاخ عن علم اشتغل به العرب، فبعضهم استجاب لنزعة نفسة – بل أغلبهم– ورمى البلاغة بجمودها وعدم صحتها لعصر متقدم.

فالأسلوبية النقدية تعتمد في نقد النص على جوانبه اللغوية كافة، سواء احتاجها النص أو لا، فتأخذ الجانب الدلالي والصوتي واللغوي ثم الصورة الأدبية أو البيئة، مراعية في ذلك نزعة قائله، وحال المتلقي؛ لذا كان الحديث عن البلاغة ونشأتها من أهم جوانب هذا البحث؛ لمعرفة: هل البلاغة فرَّطت فيما توصلت إليه الأسلوبية؟ أو البلاغة كانت مفهوما واسعا، ضيَّقَه المتأخرون من أهل العربية؛ فجَنَوا على قيمتها؛ وصار بعض الدارسين يلوك لسانه بما ترتب على قِصَر الفهم لمصطلح البلاغة.

---

(1) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها المعاني صـ ٦٦، والاتجاهات الأسلوبية، إبراهيم عبدالله، صـ ٤٩ وما بعدها.

المطلب الثاني: البلاغة نشأة وتطورا:

البلاغة علم متجذِّر في القدم، له أصوله وإن لم تُكتب؛ إذ وصفت العرب بعض رجالها بكونه أفصح العرب، والفصاحة كانت مفهوما شاملا لا يقتصر على النطق السليم لقواعد وكلمات اللغة، وإنما مراعاة الأحوال ومقتضياتها.

حين يظهر علم فإنه لا يقوم فجأة بلا مقدمات -بخلاف علم العروض- إنما يبدأ نتفا من القول وفِكَر وأراء، ويحبو حتى تكتمل قواعده ويستوي على سوقه، وهكذا كان علم البلاغة، ظهرت له جذور ثم نشأة ثم نضوج لهذا العلم، حتى وضعت قواعده التي على دارسيه أن يطبقوا ويطوروا منها وفق المقامات والمقتضيات.

فعُرِفت البلاغة في اللغة بالوصول والانتهاء، «بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى... والبلاغة الفصاحة، والبَلْغ والبِلْغ: البليغ من الرجال، ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغ: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه.»[1]

وقال أبو هلال العسكري: «البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغتها غيرى. ومبلغ الشيء :منتهاه. والمبالغة فى الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسمّيت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. وسمّيت البلغة بلغة لأنك تتبلّغ بها، فتنتهى بك إلى ما فوقها، وهى البلاغ أيضا. ويقال: الدنيا بلاغ؛ لأنها تؤدّيك إلى الآخرة.والبلاغ أيضا: التبليغ، فى قول الله عزّ وجل: {هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ}أى تبليغ.»(٢) وإذا كان هذا مفهوم البلاغة في اللغة ، والذي فيه عموم الانتهاء

---

(١) لسان العرب، مادة (بلغ).

(٢) الصناعتين، صـ٦.

وحسن الكلام، وحسن التعبير عن المراد، فما تعريف البلاغة كمصطلح عند العرب ثم البلاغيين؟

البلاغة علم كسائر العلم لم يبدأ مكتملا، ولكنه يفترق عن غيره في أنه نضج ولم يكتمل؛ لأنه قائم على ذوق المتكلم أو القارئ يستجلي محاسن الكلام وفق السياق الذي قيل فيه.

وقد ظهرت بذوره كما أوردها الجاحظ بعد أن ذكر أجوبة اليوناني والفارسي والهندي وغيرهم عن معنى البلاغة، وكان لكلٍّ جواب غير صاحبه(١)، في سؤال معاوية رضي الله عنه صُحار بن عياش العبديّ : « ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبُسْر والرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل والله، إنا لنعلم أن الريح لتُلْقِحَه، وأن البَرد ليعقِدُه، وأن القمر ليَصْبُغُه، وإن الحر ليُنْضِجه.

وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء، وتقول فلا تخطىء. فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقِلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطىء ولا تخطىء»(٢) .

فهذا جواب عن حد البلاغة قبل أن تصير علما، وقد قُصرت على الإيجاز؛ لكونهم أصحاب اللغة، لسانهم فصيح وجوابهم شاف، فكانت تكفيهم الإشارة عن طول العبارة، وتشبعهم الكلمة عن طول العبارة، فقال: الإيجاز، ثم عرفه، وجعله إيجازا في الوقت (فلا تبطئ) وإيجاز في الكلام (فلا تخطئ) والخطأ يأتي من أحد أمرين: كثرة الكلام بلا حاجة، أو قِلَّتِه

---

(١)البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،٨٨/١ وما بعدها، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة.الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨.

(٢) السابق صـ ٩٦.

وعدم وفائه بالمراد، والرجل حصره في الإيجاز، فكان المعنى: أن يكون كلامك موجزا وافيا.

وكذلك قوله فلا تبطئ فيه مراعاة للمخاطب؛ إذ البطء يكون على حال المخاطب، فهو مَن يَحْكُم بسرعة الجواب من عدمه؛ لأنه الْمَعْنِّي بالخطاب.

وقد ذكر الجاحظ التعريف نفسه مقيّدا الإيجاز بعدم العجز، والإطناب بغير الخطل، بما يظهر المكنة البلاغية لدى قائله، فقال: «قال لي ابن الأعرابي : قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منَّا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.قال ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات؛ فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا؛ فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.[1]

.من إنعام النظر في هذه الأقوال نلحظ تمكن القائلين من مفهوم الإيجاز الذين رأوه البلاغةَ، وفي قول ابن عمر –رضي الله عنهما– دلائل عظيمة قديمة تؤصل للعلم: فهو يخاطب ويدعو ربه، فعلَّم السامع أن يكون حصيفا مع المخاطبين عليما بمن يكلمهم؛ لذا استعاذ من الإسهاب؛ فالمولى عز وجل أعلم بالسر وأخفى. هذه الحصافة هي قاعدة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ولن نّعدم أصل هذا من قول النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما رواه ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث والأثر» فيقول: « فِيهِ(٢) «نَحنُ

---

(١) البيان والتبيين، ١/٩٧.

(٢) أي: في حديث معاذ.

معاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ فِينَا بَكَاء» أَيْ قلَّة الْكَلَامِ إِلَّا فِيمَا يُحتاج إِلَيْهِ.»(١)، فلا غرو من قول ابن عمر –رضي الله عنه: نعوذ بالله من الإسهاب.

وإذا كانت هذه نظرة الأوائل لمعنى البلاغة، وأن أصلها الوصول للمخاطب بأقصر الطرق مع استيفاء المعنى، فقد أخذت البلاغة في النضوج ، وتناثرت الإشارات إليها والأحاديث عنها، مابين متحدث عن بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، ومُفَرِّق بينها وبين الفصاحة كابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة مشيرا إلى تعدد حدها عند أهل العلم(٢)، ثم يأتي الإمام عبد القاهر فيشير إلى وظيفة البلاغة، ويزرع أصول العلم وينمي عقل القارئ ليكون بليغا، بتدريبه على الذوق.ويقول: « النظم" هو توخي معاني النحو، وبيان ذلك:

اعلم أنْ ليسَ "النظمُ" إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ "علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك٤، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها.»(٣)،

---

(١)النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ١٤٨/١، مادة (بكأ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

(٢)سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، صـ٦٠، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

(٣)دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، صـ٨١، ت: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

وكان مَن ضبط معَاقِد هذا العلم وحدَّه حدًّا سار عليه اللاحقون هو الخطيب القزويني فقال في تعريف البلاغة: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»(١).

وهذا الضابط قد اتخذه اللاحقون أساسا ينطلقون منه؛ إذ وجدوا في هذا التعريف ملاذهم الآمن الذي ينطلقون منه، فهو بمفهوم المنطق تعريق جامع مانع لهذا العلم.؛فجعل للبلاغة أركانا تنطلق منها: الحال وهو ما يعادله المحدثون بالمقام، وكل كلام له حال مختلفة تقتضي أسلوبا وكلاما يطابق هذه الحال.

ومقتضى الحال، الاعتبار المناسب، ما يقتضيه الكلام من أساليب تناسبه، مقتضى الحال = النظم عند الإمام عبد القاهر، إتيان الكلام مطابقا للحال.

ثم عقد لذلك كله شرطا أساسا وهو فصاحة هذا الكلام ومجيئه على حدود العرب (مع فصاحته)، وبهذه الأركان نجد البلاغة هي أصل ما قال به المحدثون من مخاطَب ومخاطِب وخطاب، ومقام، بل استدعت أن يكون المخاطب شخصا آخر أو النفس، ولكل حديث خاص به؛ لأنه قال: الحال ولم يقل: حال المخاطب.

فالفصاحة شملت الجانب اللغوي (الخلو من ضعف التأليف، ومخالفة القياس) وشملت الجانب الصوتي (عدم التكرار، التنافر) وهذا التنافر من أسبابه أحيانا تكرار الحرف في كلمات متتالية، كما أن التنافر دليل على مناسبة المقام، فاستعمال الكلمة الثقيلة في موضع يناسبها يكون فصيحا بليغا.

---

(١) الإيضاح، الخطيب القزويني، صـ١١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون ط،بدون ت.

نشأة البلاغة:

ومن خلال بيان تطور المصطلح يسهل على القارئ أن يستنبط أن البلاغة كغيرها من علوم العربية؛ إذ مَرَّت بمراحلَ في نشأتها:

مرحلة الجذور والإشارات: وهي مرحلة كان العربي متمكنا من لغته لم تزحف إليه العُجمة، فليس بحاجة –كعادة العرب– للتدوين، وإنما اعتمدوا على السليقة السليمة، وظهرت قريحتهم في أشعارهم ونثرهم ، وقد ظهر ذلك جليا في مؤلفات نشأة البلاغة، وما كان يُوجَّه إلى ذلك من نقض في الأسواق أو مجالس الملوك، أُخذت منه أصول العلم فيما بعد.

ثم مرحلة التدوين أو النشأة : وقد أخذت فيها البذور البلاغية تظهر في مؤلفا ت العلوم الأخرى، فصاحبت بعض المصطلحات كتب الأدب والتفسير والحديث وغيرهم.

ثم بدأت مرحلة الاستقلال عندما كتب ابن المعتز ألف كتابه البديع، ثم جاء من بعده أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، وغيرها من مؤلفات البلاغة في مرحلة النشأة.

أما آخر المراحل: نضوج العلم وكان مؤسسه الإمام عبد القاهر الجرجاني، وقد أسس لبعض الفنون، وأبان عن عماد البلاغة وهو الذوق، وبيَّن إعجاز القرآن، وأنه في النظم. وجاء على الزمخشري وغيره؛ حتى ظهر السكاكي بكتابه مفتاح العلوم، والذي قسم هذا العلم أقساما ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وظهر ذلك في القسم الثالث من كتابه، وعلى يديه تميزت علوم البلاغةومباحثها؛ وتلاه الخطيب القزويني الذي قعَّد البلاغة جامعا بين آراء عبد القاهر وضوابط السكاكي، فألف التلخيص ثم الإيضاح، ثم قامت بعد ذلك الشروح على تلخيصه، وصار أصلا ينهل منه علماء العصر الحديث ويطورون(١)؛ حتى اختلط بعض المحديثين بالغرب فرأوا ما ألَّفه الغربيون للغتهم؛ فأخذه بعضهم ليضعه في مواجهة علم البلاغة والذي هو الأصل في علوم اللغة لدى الغرب.

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، ٨/١،ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

المطلب الثالث: بين الأسلوبية والبلاغة:

من خلال بيان ماهية الأسلوبية والبلاغة فيما سبق يمكن بيان الائتلاف والاختلاف بينهما.

أولا: الأسلوبية لها أركان وهي: المخاطَب والمخاطِب والخطاب والمقام. وتدرس النص من عدة جوانب: النحوية الدلالية الصرفية والصوتية.

البلاغة: أركانها: الكلام، الحال، مقتضى الحال، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بعد استيفاء قواعد الفصاحة، ولا يخفى ما في مطابقة مقتضى الحال من المخاطَب والمخاطِب وإن كانا شيئا واحدا.

ثانيا: من حيث التناول: فإن الأسلوبية تعتمد استعمال معايير علوم اللغة (نحو وصرف وبلاغة وأصوات وعروض) لستخرج خصائص النص، فليست ذات قاعدة تقوم عليها بذاتها.

أما البلاغة فقد وضع مؤسسوها قواعد وقسموها عدة علوم (معاني، بيان، بديع) ولكل علم ضوابط يقوم عليها، فكانت البلاغة كعلم لها ضابط عام يقوم على الذوق والتدبر، وعلومها لها ضوابط ومعايير لا بد أن تستوفي الضابط العام للبلاغة. مع فصاحة الكلام.

وهنا ننتقل إلى معيارية العلم: فالعلم لا بد أن تكون له معايير يقوم عليها وهذا حقا في البلاغة متوفر، فيما تقوم الأسلوبية على معايير العلوم مجتمعة، فقامت على المقام وما يستدعيه من تلك العلوم من أصوات ونبرات وألفاظ، ودلالات،فعادت في تحليلها لأساس البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فليس لها معيار خاص بها في الأغلب.

ثالثا: من حيث الجمود: هل جمدت البلاغة عن تناول النصوص كما زعم بعض المحدثين؟ ، والجواب أن الجمود في المتناوِل لا في علم

البلاغة؛ فقد حصر كثير من المحدثين البلاغة فيما وضعه الخطيب من قواعد، ونسوا أمرين مهمين:

الأول: الأساس الذي وضعه عبد القاهر في التناول وهو الذوق بين استيفاء معايير النحو.

الآخر: أن الخطيب حين وضع أغراضا للفنون كان من طبعه أن يقول في –أغلبها– (منها)، كأنه يُنَبّه لى أن هذه الأغراض قد أُخرِجت من الاستقراء مع التذوق، وأن القارئ عليه أن يسير على النهج نفسه في استقراء النصوص وتذوقها؛ ليخرج الجديد منها ولا يتجمد عند قولنا. وهو يسير في هذا على منهج الإمام عبد القاهر في تأَمُّل النصوص.

فهل توضع الأسلوبية مقابل البلاغة؟

والذي يتراءى من خلال البحث أن الأسلوبية تقوم على استعمال قواعد البلاغة لاستخراج خصائص الأسلوب، مع غيرها من العلوم، فلا يمكن وضعها ندا للبلاغة ولا الأدب، ولا النحو ولا الصرف، ولا الأصوات ولا غيرها، وإنما يمكن وضعها في مقابل مصطلح النقد، أو إنها منهج لتناول النصوص من خلال قواعد العلوم.

فهذا كله يثبت أن الأسلوبية (لسانية كانت أو نقدية) لابد ألا توضع في مواجهة علم البلاغة الذي وضعت له خطوط ثابتة لتفتح الباب للمتذوق، وإنما توضع في مقابلة النقد أو علم الكتابة.حتى إن أغلب دارسيها درسوها على غرار علم اللغة؛ الذي هو الأصل في الدراسات.

وحين قلت: النقد لم يقيد بأدبي أو بلاغي أو لغوي، وغير ذلك، لأن الأسلوبية كما ذكر البحث تهيم بالجوانب كافة.

ومن خصائص الأسلوبية: أنها تعمل على عود الترابط بين علوم العربية كما هو الأصل، من خلال دراسة النص من جوانبه كافة، كما عملت الدعوة إلى الأسلوبية على تحريك همم دارسين البلاغة لينفضوا غبار

الكسل عن هذا العلم المتصل بالقرآن الكريم. ويعيدوه إلى عصر مجده بإبراز دور التذوق.

كما أن للأسلوبية دعوة إلى تحديد ملامح النصوص ليعرف أصحابُه من خلالها، وهي أشبه بالمحال؛ لأن الخصائص قد تتشارك بين قائِلَيْنِ، وقد يشتد التأثر بين لاحق وسابق، فينسج على نهجه، ومن هنا جاء إعجاز القرآن، من حيث كونه لا يمكن النسج على أسلوبه (النظم)؛ والذي سبق إليه الإمام عبد القاهر، إذ هو أعلى طبقات البلاغة ، بل هو الطبقة العليا منها.

لذا حين سمعه الوليد بن المغيرة من رسول الله قال فيه قولته المشهورة: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة...إلخ، وسبب هذا أنه سمع كلام ألفاظه من ألفاظهم وحروفه حروفهم، لكن النظم والتركيب يُعجِز ألسنتَهم، وهوذو أسلوب متفرد.

فدعوى أن تحلل الأسلوبية نصًّا فيُعْرَف منه صاحبه ويتميز أمرٌ مُحال؛ لأن الإشارة إلى نَصٍّ أنه قول فلان، أو كلام أنه صنيع آخر–لا بد أن تصاحبه ميزة أخرى غير الكلام نفسه ، كأن يكون مسموعا فيعرف من نطق صاحبه، أو مكتوبا فيه أمور لا يختص بها سوى فلان، فيعرف به صاحبه ككلام طبيب مشهور، أو تعريف علم تفرد به صاحبه وغيرها.

فتمييز أسلوب عن آخر بعد دراسة خصائصه يكون – من نظرة الباحث– إما بالمنطوق، فيتميز من صوت صاحبه.

أو يكون المُمَيِّز هو اختلاف الطبقة الذي يقتضي عدم المقدرة من المتكلم على الإتيان بمثل هذا الأسلوب، ككلام جاهل بكلام عالم فلا يتأتى من مثله، قيقال: ليس أسلوبه، أو كلام تاجر بكلام طبيب فيُحكَم عليه بنفيه عنه، وهكذا مما يلزم من خصائص مرادفة لخصائص الأسلوب اللغوي.

وقد عرف الكفار حياة رسول الله وتأكدوا منها في غزوة أُحد –مِن كلام الفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حين أجاب أبا سفيان عن سؤاله « أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَنَهَاهُمْ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وَسَلَّمَ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نفسه أن قَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّه، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، وَقَالَ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سجال سَتَجِدُونَ لَكُمْ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ [اعْلُ هُبَلُ] اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوهُ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّه أَعْلَى وَأَجَلُّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوهُ؟قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه مَا نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا اللَّه مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ.رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ، عَنْ زُهَيْرٍ »(١).

ففي النص إصرار من أبي سفيان على الجواب، ولكن حين سمع جواب عمر –رضي الله عنه: الله أعلى وأجل، الله مولانا ولا مولى لكم، تأكد من حياة رسول الله ومن سأل؛ لأن الأسلوب صاحَبَه جانب عقدي في بداية الإسلام لا يجيب به إلا رسول الله؛ حتى إن الصحابة سألو رسول الله – صلى الله عليه وسلم:بم نجيبه يا رسول الله؟ فأعطاهم الجواب. فكبت الكفار.

(١)دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ٣/٢١٣، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٠٥ هـ.

فهذه خصائص أسلوبية لهذا النص تقدمها البلاغة لها؛ لتغوص في أعماق النص: ففي النص صيغة تفضيل (أعلى) (أجل) علو وعظمة أفحمت قول الكافر: «أعل هبل» وما يتبعها من استثارة مكنون عدوهم، فحاججهم بوجود إلهه –كما يزعم– وعدم وجود إلههم.

فكان الجواب في قول رسول الله لعمر رضي الله عنه «الله مولانا ولا مولى لكم»، وفيه التعريف للمسند إليه بلفظ الجلالة تأكيد لمعنى الألوهية الحقة، واستحضارها في ذهن السامع، كما جاء المسند مضافا لضمير الجماعة تعظيما لهم بجعل ولايتهم مع الله عزو وجل، ولننظر إلى إيثار (نا) بدلا من الاسم الظاهر : المؤمنين مثلا، ففيه شمول للمتكلمين وتمييز لهم دون من يدعي إيمانا زائفا وقلبا منافقا، إضافة إلى ما فيها من حرف المد الذي يظهر زفرات المتكلم التي تلقي الرعب في قلب مخاطبه.

والنفي ب(لا) التي تشمل الحال والاستقبال، فإنهم لا مولى لهم ولن يكون، بل والختم بالميم الشفوية التي تدل على إلجام خصمهم وإبطال دعواه. وغيرها من الخصائص التي لن تخرج عنها الأسلوبية في إبراز هذه الخصائص لو درست هذا النص.

وعن علاقة الأسلوبية بالتراث العربي

فقد أفرد لها الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني–رحمه الله– عنوانا؛ بيَّن فيه هذا الأمر(١)؛ فتحدث عن صلة الأسلوب بقائلة وأنه في الأسلوبية ثلاثة مداخل: نفسي،إحصاءئي ووظيفي، ثم أظهر وجود تلك المداخل في كتب العرب.

---

(١) علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية.د/ عبد العظيم المطعني،صـ٥٢، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

فالمدخل الإحصائي ظهر عند أبي هلال العسكري حين تحدث عن سبب نفوره من مذهب المتكلمين؛ فرصد ما يكثر دورانه في كلامهم كالجسم والعرض وغير ذلك، وهو المدخل الإحصائي.

ثم أظهر المدخل النفسي ووجوده في كتاب «الوساطة» للقاضي الجرجاني، والذي بيّن أن شعر البحتري ألصق بنفسه (البحتري) من شعر أبي تمام.ونتج عن هذا المنهج وصف البحتري بأنه مطبوع.

وختاما فإن كثيرا من دارسي نظرية الأسلوبية من العرب، لم ينعموا نظرتهم لنشأتها في الغرب، وأنهم –أي الغرب– نشأت لديهم ليكون لديهم قواعد لتحليل النص كما عند العرب، حتى جعلت هي والبلاغة واحدا، فجعلوها ندًّا للبلاغة، وأخذ بعضهم إلقاء اللوم على البلاغة بتقصيره.

كما أن البلاغة أخذت قرونا لتستوي علي على سوقها، وتخرج علما ذا قواعد وأصول ينتفع به الناس، فهل نظر القائلون بانتهاء البلاغة وحلول الأسلوبية مكانها إلى هذا الزمن للتطور؟ وهل نظروا إلى أصول نظريتهم؟ وهل نظروا إلى استوائها من عدمه؟ فلم يجتمع دارسوا الأسلوبية حتى يومنا على تعريف واحد لها، وهذا أكبر دليل على كونها منهجا أو بذورا لعلم لم يكتمل، أم امتدادا للنقد، كل هذه تساؤلات لن يجيب عنها سوى الزمن.

ولا يجب على دارس اللغة العربية إهمال تلك النظريات الحديثة، كما لا يجب عليه أن يتجرعها بلا وعي أو تدبر أو فهم المقصود منها، وكذلك لا يغالي في جدتها ومناسبتها بما يطعن في لغته، التي لم تنضب قواعدها وأسسها عن دراسة لغته وإخراج جمالها، فلو كانت البلاغة قد جَمُدَت –كما زعم بعض منتسبي الأسلوبية– لما وفَّت في بادئ أمرها، وإنما وفاؤها في بادئ الأمر مع تمام اللغة وقوتها أدعى لشدة وفائها في ضعف اللغة، وإلا فالنظريات الحديثة جعلت لتلائم ضعف المتكلمين فلا تنطبق على كلام الأقوياء السابقين.

الخاتمة

وبعد، فالحمد لله أولا وآخرا، وله الشكر ظاهرا وباطنا، فقد أتم سبحانه نعمته بانتهاء هذه الأطروحة، وكان من نتائج التحليل فيها ما يأتي:

١- نشأت الأسلوبية في بادئ الأمر بمعنى البلاغة؛ مما يدل على عدم وجود هذا العلم لدى الغرب آنذاك.

٢- أن الأسلوبية جذورها ممتدة في العربية متأصلة فيها؛ فليست بدعا من القول.

٣- تطورت الأسلوبية عبر مدارس مختلفة وسنوات متعددة ولم يتفق أصحابها على مصطلح ثابت لها كالبلاغة.

٤- دعوى جمود البلاغة واهية ، وإنما الضعف في تناول دارسيها، أو جحود مدعيها.

٥- الأسلوبية أقرب إلى منهج لدراسة النصوص، وليست علما قائما بذاته منفصلا عن غيره؛ لذا وضْعُهَا ندا للبلاغة خطأ في التوظيف الدلالي لهذا المصطلح، وإن كان لا بد من وضعها في مقابلة علم أو منهج فهي أقرب إلى النقد.

٦- أن الأسلوبية تعتمد في تناولها على قواعد البلاغة وغيرها من العلوم.

٧- أن استجلاء خصائص النص من خلال الأسلوبية لا يقتضي تفرده بها، إلا القرآن الكريم، فإنه –كما نص العلماء– طبقة وحده ولا يقارن بغيره. وإنما يعزَى النص لصاحب من خلال عوامل أخرى مع الخصائص الأسلوبية؛ كأسلوب نُطْقه(الصوت)، أو تميزه بأمر ما يظهر في أسلوبه (كَتَكَلُّمِ) جاهل بكلام عالم.

٨- أن الأسلوبية يحسب لها –وإن كان غير مقصود–العمل على الترابط بين العلوم العربية كما هو الأصل عند العرب.

٩- تتميز البلاغة عن الأسلوبية في دعوتها إلى إعمال الذوق في النص لاستخراج فحواه، واستجلاء معانيه، في حين تعتمد الأسلوبية على العلوم المعيارية لاستخراج خصائص، فالذوق فيها لا يكون كالبلاغة، فوصف البلاغة بعلم الجمال أولى من الأسلوبية.

توصيات البحث:

- الاهتمام بتطبيق دراسة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة في مرحلة الإجازة العالية ليتمكن الخريجون من الإلمام بما تقاومه اللغة من تدخلات.
- الاهتمام بدراسة النظريات الحديثة في اللغة ، ومدى الإفادة منه، وما يمكن إلحاقه بدراسة العربية، وما لا يمكن.

فهرس مصادر البحث

١- الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، إبراهيم عبد الله أحمد ، الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، ١٩٩٤م.

٢- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب،وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة،١٩٦٦م.

٣- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. فتح الله أحمد سليمان، مكتبة الأداب، ١٩٩٠م.

٤- الأسلوبية والأسلوب، د/عبد السلام المسدّي، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي.

٥- الأسلوبية، بييرجيرو، ترجمة منذر عياش، مركز نماء الحضاري للدراسات والترجمة والنش، حلب..

٦- الإيضاح، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون ط،بدون ت.

٧- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، د/ فضل حسن عباس ، دار الفرقان للنشر ، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٨- البيان والتبيين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)،عبد السلام محمد هارون، ١١١/٨، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

١٠- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، ت:

محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

١١- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٠٥ هـ.

١٢- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

١٣- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة د/ يوئيل يوسف عزيز، دار أفاق عربية ، ١٩٨٥م.

١٤- علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية.د/ عبد العظيم المطعني،صـ٥٢، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

١٥- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري ، تحقيق: على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.

١٦- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ) ، ٤٧٣/١ دار صادر – بيروت، الثالثة – ١٤١٤ هـ.

١٧- مجلة أوراق ثقافية، بحث: الأسلوبيّة مبادئ واتّجاهات، د. سهام عليّ طالب أستاذ مساعد، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

١٨- مختار الصحاح، الإمام/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مادة (ف ن ن)، عني بترتيبه: محمود خاط

١٩- المصباح المنير،أحمد بن على الفيومي الحموي (ت ٧٧٠هـ)،تحقيق: د/ عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، الطبعة الثانية،١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٢٠- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.